وصف المعارك في الشعرالزياني

(السلطان أبو حمّو موسى أنموذجا)

أ . نورية بن عدّي

جامعة تلمسان

إنّ طبيعة حياة السلطان والشاعر الزياني أبو حمو موسى الثاني المليئة بالصعوبات ، والعوائق ، والمشاحنات السياسية جعلت منه قائدا ميدانيا لمعارك عديدة ،وذلك سعيا منه لتهدئة الأوضاع الأمنية وكسر شوكة القبائل المتمرّدة المتحالفة أحيانا مع الجبهتين المرينية غربا والحفصية شرقا ،الأمر الذي أسفر عن معدن الرجل وقدراته الحربية والبطولية ، إلى جانب موهبته الشعرية التي لولاها لما تمكّنا من ملامسة بعض الجوانب البطولية في شخص هذا القائد الذي أظهر براعةً محسوسة في وصف الوقائع ، وتصوير المعارك أثناء محاولاته العديدة لاستجلاء أحاسيسه ، وبسط عبير تجاربه، ونقل الصّور العالقة بذهنه ، غير بعيد عن ملامح الفطرة البشريّة المتّسمة بالبساطة في عمومها والسحر في تفاصيلها .

إن كنت من الباحثين في ديوان الشعر العربي عن نماذج مثالية في شعر البطولة والحماسة ، فأخشى أنّك لن تجد مثيلا لمعلّقة عنترة بن شدّاد أو لمعلّقة عمرو بن كلثوم ، إلاّ عند غيرهم من أصحاب المعلّقات التي ظلّت ولقرون عديدة نموذجا تصويريا مُثيرا ، وتجربة شعرية وشعوريّة رائدة ،بإمكانها أن توفّر لك متى شئت ، الكثير من الإثارة عبر

كلّ ما ستقدّمه لك كقارئ من مشاهد حربية وصرخات حماسية تسلسل صورها في ذهنك على شكل لمحات ومقاطع تصويرية لونها بريق السّيوف ،وصوتها قرع القنا وصخب القتال ، أمّا سحرها فيكمن في تفاصيل لوحة حيّة مثّلت يوما ما واقعا خبره أولئك الشّعراء الفرسان وذاقوا حُلوَه ومُرّه ..

أمّا إذا كنت تبحث عن أبطال حقيقيّين كُتب لهم تقمّص دور البطولة في مشاهد حربية حقيقية روتها أقلامهم بكلّ فخر وحماسة في عهود مختلفة أو متأخّرة كالعهد الزّياني مثلا ،مع مراعاة الفارق الزمني والبيئي ، فسيكون بطل الدولة الزّيانية وفارسها ، وشاعرها الذي سجّل على صفحات قصائده مجدهُ ومجْدها ،هو ضالتك ، إذ لم نجد في هذا العهد من هو أجدر بحمل هذا اللقب من السلطان " أبو حمو موسى الثاني" .

ربّما يتبادر إلى الذهن أنّنا و في محاولة منّا لرصد القيمة الشعرية للقصائد الزيانية الحماسية على العموم ، وما تعلّق منها بوصف المعارك على وجه الخصوص ،قد نَسْعى لإقامة مقارنة تجْمع شعرَ هذا السلطان الفارس بشعر أولئك الأوائل ممّن طال الحديث عن تفوقهم و تفنّنهم في باب الأداء التعبيريّ الشعري إلى جانب أداءهم البطولي الأسطوريّ ، غير أنّنا و لسببين أساسيْن لن نلجأ إلى أمر كهذا ، أوّلا لعلمنا بمقدار الفرق بين شعر الجانبين جودة وصناعة وقوة ، وثانيا لاختلاف واضح بينهما بيئة وزمانا ومكانا ،فنتفادى بذلك أن نضع بطلنا في ميزان ستُرجّح الكفة فيه لغيره في أغلب الحالات .

فربّما نظم أبو حمو بدافع التقليد لأنّه لم يكن محاربا مغوارا كعنترة ، أو ربّما نظم مفتخرا بتلمسان وأهلها على علم منه بأنّه لم يكن لها أيّام مشهودة على الأعداء الذين يتربّصون بها من كلّ جانب كأيام قوم "عمرو بن كلثوم " مثلا ، ولكنّه مع ذلك استطاع أن ينقل لنا ومن عمق بيئته ، ومحْض تجاربه صورا رائعة تشعّ فخرا وعزّا يمكن أن يُباهَى بهما كلّ مُفتَخِر.

ولعلّ الأمر هاهنا يرجع إلى طبيعة حياة هذا القائد الشاعر المليئة بالصّعوبات والمشاحنات السّياسية التي قد لا يتأتى حلّها وحسن إحكام السّيطرة عليها إلا لداهية أو بطل ، فلا أحد يجحد قيمة الجهد الذي بذله آل زيان وعلى رأسهم هذا البطل لأجل استرداد عرشهم من المرينّيين ، وما لاقُوه من عراقيل و مكاره في سبيل ذلك ، إذ تعدّ قصيدة أبو حمو التي نظمها (1) بعد محاولته الناجحة لاسترداد عرش أبائه ، ودخوله تلمسان فاتحا سنة 760 هـ أروع بيان عن بطولاته وقدراته الشعرية معا . فكأنّها ملحمة تجلت فيها ملامح شخصية فذة، وصورة قائد عظيم يحقّ له أن يهتف مفتخرا بإنجازاته وانتصاراته :

جَرَتْ أدمُعي بْين الرّسُوم الطواســــم ... لما شحطتـــها منْ هُبوب الرّواكـــم
وَقفتُ بها مُستفهـــما لِخطابهـــــا ... وأيّ خطاب للاصلاد الصـــــلادم
وَسِرْتُ على جـــون أقبّ مُضْمـــر ... كلمْعة بَـرق أو كلمْحــــة صارم
وجُلتُ بطرف الطّرف في عرصـــاتها ... كجولة واله أو كـــوقفـــة هائم
وصفقت مابين الظــلول خوامســـي ... وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم

ودونك هذه الأبيات الاستهلالية التي أعدّت خدمة لجلاء الحسّ والمعنى ، ففيها عصارة ما اختمر في ذهن الباث من خواطر قبعت في داخله قبل أن يتكوّن لديه الاستعداد الكافــي والتهيئة النفسية المطلوبة لخوض غمار معركة الحفاظ على الملك بعد استعادته . لذا فقد جعل منها محورا نفسيا هاما ومُنطلَقا منطقيا لخوض هذه التجربة الشعورية التي ستسفر ولاشكّ عن مجموعة من التقلّبات النفسية التي ستتبدّل بتبدّل المواقف والأحداث منتجة نوعا من الحركية والفاعليّة التي تزيد النّصّ ثراء ، والمشاهد واقعيّة ووضوحا .

يبدو أنّ الإيقاع النغمي الصادر من إعادة أفعال معيّنة(جَرتْ . وقفتُ . وسرْتُ . وجُلتُ . وصفّقتُ . وفاضت . وقُلتُ) كلّها في زمن الماضي مقترنة بواو العطف ،موزّعة بشكل تسلسليّ ،قد كان ذا دور في الدّلالة على فعالية وحركة دائمتين ملِؤُهما الحماس والتّخطيط لهذه المهمّة ، كما أنّه وبهذا التركيز على الزمن الماضي سيضع القارئ أمام أوّل لبنة زمنيّة من لبنات هذه التجربة الشعرية والشّعورية الممتدّة على طول النّصّ .

وَقُلتُ لصحْــبي لا تملّوا من الســـّرى	ولا يَزْدريكم في السّــرى لومـــة لائم
سلوا ساكنات الحيّ أين تحـــمّـــلوا	فقدْ عيلَ صبْرى بيْن تلك المعالـــم
ديارٌ عَهِدْناها بهــا الشّمل جامـــع	مع الغانجات الآنسات النّواعـــم
وكم ليلة بات السّـــرور مُساعـــدي	بسعدى وسلمى والمنـى لمّ ســالم

وكما يبدو من خلال لفظة " وقلتُ " التي تفيد المخاطبة ، استطاع الشاعر تجاوز المرحلة الأولى التي كان فيها وحيدا تُساوره الخواطر وتعتصرُه الأحزان ، إلى مرحلة ثانية تكون فيها مخاطبة الصّحب بمثابة السّلوى والمواساة . وَمَا مُقاسَمتُه لهم الهموم

بالتشكي من تولّي أيّام السرور التي غابت بغياب الأحبّة (ساكنات الحيّ : سعدى . سلمى . أم سالم) إلاّ شكل من أشكال التّصبّر الممزوج بالرّغبة الكبيرة في استعادة الملك وأيّامه ، وكأنّ هذه الأسماء قد تخلّت عنده عن صفتها " الآدميّة " وصارت في نظره مجرّد رموز أسطوريّة ، يمكن أن تحمل دلالات متعدّدة كالحسن والجمال الذي قد يمثل هنا جمال وصفاء أيامه في تلمسان قبل أن يضطر للرحيل عنها ! أو قد تكتسي هذه الأسماء طابعا معنويا يرمز إلى صورة حلمه الضّائع (تلمسان) وأمله الكبير في استرجاعه ، وما تبسّم ساكنات الحيّ له إلاّ بصيص من الأمل في أفق الأيّام التي صارت تبشّر بنصر قريب ، ومع ذلك لازالت مشاعر الأسى تعصر قلبه ، وتُصليه جوى وشوقا وذكرى ، كما لازال مشهد الدّيار والمنازل التي نزل بها محفورا في ذهنه ، ولازال يتساءل مستحضرا خلفيات شعرية و شعوريّة عمّا حلّ بالدّار بعد الرحيل ؟ فيقول :

فعادت رُسومُ الدّار بعْدَ أنيسهـــــا هَشيمًا ولاتخفى بقايا المَراســـــم
وكـم نسجتها من جنـــوب وشمأل وكم سجعتها من لغات الحمائـــــم
كأني بهم والله يوم تحمـــــلـــوا وحـــاذي النّوى يحْدو بذات المباسم

لقد حملت هذه الوقفة الطللية المنتسبة إلى المقدمّة خلفيات شعورية مألوفة ،لعلّنا اعتدنا سماع رنّتها ونبرتها الحزينة عند الجاهليين من الشعراء وكلّ من حدا حدوهم بطريقة أو بأخرى ، استجابة منهم لصدق الشّعور وصفاء القريحة ، فهم إنّما يحبّون في كلّ مرة أن يقفوا هذا الموقف لفطرة فطرهم الله عليها ولرغبة نفسية يعشقون الإذعان لها ، من غير عُقد ولا مُبرّرات .

وقد لا يخفى هنا على القارئ حجم التأثر الكبير بالموروث العربي (خاصّة منه ديوان امرئ القيس) وكأنّ في ذلك تأكيد من لدن الشاعر الزياني على رغبته العارمة في تجديد الصلة بالموروث الأدبي الجاهلي عبر وشائج الارتباط والانتماء والمحاكاة ، فهو لا يملك إلا أن يحاكي هذه التجارب الرّائدة ، تحت ضغط الإعجاب الشّديد ،حيث لا سبيل هنا لأن تكون العلاقة بين النّصين علاقة تخاطر في الأفكار والمعاني بقدر ما هي محاولة لتوظيف التراث الشعري ، وانجذاب واضح نحو اتّجاه معيّن .

ولاشيء بعد هذه الوقفات الطللية التّمهيدية التي فاحت بلغة حماسية ، أنسب عند أبي حمّو من الانتقال إلى جوّ الافتخار ووصف رحلته الطّويلة التي خاض فيها معامع القتال وذاق في أثنائها بلاء الأهوال في سبيل الحفاظ على الملك وكسر شوكة العدوّ . حيث راح بلهجة الأنا ممتطيا ضمير المتكلّم يسرد بطولاته وانتصاراته كأنّه بطل ملحمي أسطوري (وجُبْتُ الفيافي . وطوّعت فيها . وجئْت أرض الزاب . وشبكْتُ عشري . وجاوزتها . وجُزت بأرض ريغ . سألت ربوع الدّار فيها . شددتُ عُرى للنّجع . تخيّلتها مثل القطا . وجئت لوَرْجَلا . وجُزْتُ مُصابها . ومازلت أطوي . وأحطّمها . قطعتُ الحمادى)

ولقد راح الشاعر تحدو به همّته العالية يسرد لنا معارك و وقائع كان فيها هو ورجاله أبطالا ، فما هدأت لهم ثائرة حتى أخضعوا الأعادي ، قاطعين دونهم كلّ وادٍ ووادي:

ومازلت أطـــوي سهلها وأكامها	وأحطمها بين الرُّبي والهَضـــــائم
قطعْتُ الحمـادى والسّراب غديرها	على هـــيكل عبل الذرى عين هاجم

مكرّ بيوم الحــرب لايشتكي الونى   مفرٍّ إذا طالت عظام الهــــــزائم

وبمثل هذه التناصات التي تنطوي على استدعاء جميل للتراث الأدبي ، مصحوب بحُسن اختيار وتوظيف بعض ملامح هذا التراث في شكل تداخلات نصّية(سهلها . أكامها . هيكل . مكرّ . مفرّ) يواصل أبوحموُ متأثرا بطريقة الرجل الجاهلي الشّاعر في وصف راحلته ومحيطه وبطولاته، مخلّلا ذلك أحيانا بحديث ذاتي للإعراب عن موقعه النفسي من كلّ هذا :

طرقت برأسي واستفزيت بالكــــرى   وكم من ليالٍ بتّها غــــير نـــــائمِ

وجَدّدت في طلب السّرايا مُسربـــــلا   بسير حثيث أو ســــــــرى متداوِم

وكم من فياف قد قطعت أكامــهـــا   وكم نسمة جادت عليـــــها نسائمـــي

وبين ضلوعي زفرة مُسْـــــــتكنة   يصعّدها فيض الدّمـــوع السّواجم

فكأنّه في سبيل طلب ملكه واستعادته عرش أجداده لم يعُد يذوق للنّوم طعما، وبات يقطع الفيافي بسير حثيث يداوم عليه وهو يحمل هموما تكاد زفراتها تحرق ضلوعه، و تتبدّى دمعا في مآقيه . لكنه يصبر ويتأسى كلّما رأى رجاله من حوله يُمدّونه بثباتهم صبرا وبصبرهم عزما ، وبذلك يعود في الأبيات الموالية مستأنسا بضمير الجماعة " نحن " ، ليخبرنا في أبيات شعر جميلة عن تفاصيل معركة قاد فيها جنده إلى النصر(وبتنا . نسوق . خرصاننا . ملنا . جبذنا . نطارد . حملنا)

وممّا نستبين به على أنّ هذا النظم لم يكن بدافع التقليد والتّكلّف بقدر ما كان وليد عاطفة ذاتية وخاطر شعريّ ،أنّك تجد نفسك فيه أمام تطوّر مُستمر للأحداث والوقائع ، خاضع في الوقت ذاته لتسلسل منطقي وترتيب تاريخي يجعلك توّاقا للمتابعة ، مشدودا إليها على الرغم من طولها . ولعلّ الفضل هاهنا لا ينحصر في طبيعة هذه

الأحداث ولا في مصداقية صاحبها ، بل يتعدى ذلك كلّه إلى نوع القالب الذي صيغت فيه ، والمتمثل في الطّابع الملحمي المرتكز على سحر التّركيبة الجمالية السردية لهذا الجنس الأدبي (الملحمة)

وقد تجلّى ذلك الواقع البطولي لشخص أبي حمّو وجيشه في عدّة مواضع حرص فيها هذا الأخيرعلى سرد العوائق والعقبات التي ستُسْفر عن معدنه الصلب . فمثلما أبدع "أحمد شوقي" في زرع العبقات أمام بطل قصّته الملحمية "عنترة بن شداد " (التي ثمّ طبعها بمصر سنة 1932 م) لجعله بطلا خارقا يلاقي الجيوش وحده في سبيل إنقاذ" عبلة" من الزّواج بغيره (2)، أبدع أبو حمو من قبله في استعراض أنواع العراقيل التي تخطّاها في سبيل محبوبته تلمسان .

ولنا وقفة في النّص نفسه مع بعض المشاهد التّصويرية التي نقلت إلينا بوصف دقيق تحرّكات هذا القائد الزياني وشجاعته في مجابهة الخطوب ، بلسان صاحبها أبو حمّو الذي لم يكتفي فيها برسم مشاهد الحروب عن بعد ، دون خوض غمارها عن قرب :

1 . تسلل الجيش وحاله قبل المعركة : الحالة النفسية للجيش (ملل وتعب من طول الطريق)

وبتنا نسُوقُ النّجِـــع في غيْهَب الدّجى وخُرْصـــانُنا فيها كشُهب عَــــواتم
إلى مَلِ ِملنا وما مَـــلّت السّـــــرى سَرايا ركلب كالقسيّ الســــــّواهم

وقد استعان هنا ببعض الأدوات الأسلوبية المعنويّة لتصوير حركة الجيش ليلا :

غيهب الدّجى (حلوكة الليل التي حالت دون التّقدم السريع للجيش)

خرصاننا (كناية عن الدّواب التي يصحبونها) وقد أعطاها وصفا يناسب تقدّمها هي أيضا في هذا الليل الدّامس ، عندما وصفها ب" الشهب العواتم " ،وذلك مع انعدام أي بصيص من نور قد ينعكس على أجسادها فيجعلها مرئيّة .

ومن أدواته الأسلوبية اللفظية ما ورد من جناس في صدر البيت الموالي (ملل . ملنا . ملّت) وفي صدره (السرى . سرايا)

2 . بداية المعركة : وقد كان فيها بخياله الشّعري مصوّرا ينقل لنا مشاهدها ، وبطلا يصْطلي بنارها متتبّعا فيها أدقّ تفاصيلها .

أ) رؤية العدو قبيل المواجهة :

لما بدا لي غيهب القـــوم ظاهرا وحيّهم بين الظّلال الغـــياهم

والملاحظ هنا هو تلك العودة المفاجئة لضمير الأنا في قوله " لمّا بدا لي" عوضا عن قوله " لمّا بدا لنا" ، كأنّ في ذلك محاولة للفت النظر إلى صورة هذا القائد وهو يتصدر قومه ، ليكون حينها أوّل من يحض برؤية طلائع العدو فيحثّ قومه على مواصلة التّقدّم .

ب) وصف الفرسان و مطاياهم مع بداية المعركة :

جذبنا مَجــاذيبا وجَرَت جيادُها وجالت كمَا العُقبان بيْن السّقاهـــم
وضُمر عناجيج على صَهواتِها كرام سمـــــــاح بالنّفوس الكرائم

وعلى نفس النّحو تواصل المشاهد التّصويرية حضورها ، فمع بداية احتدام الصراع نسج الشاعر من وحي خيالاته صورا تُحاكي واقع هذه المعركة مقرّبا الصورة الحقيقيّة أكثر فأكثر ،حيث صارت جياد القوم تتراءى له وهي تجول في ساحة القتال كأنّها

عقبان تحوم حول فرائسها تأهّبا للانقضاض عليها ، وعلى صهواتها رجال كالهامات كرام سماح بالنّفوس .

ﺃ- في قلب المعركة :

نُطارد فيها الخيل بالخَـــيل مثلهـَا   فكان على الأعداء كــرّ الهَزاعــــم
حملنا عليهم حَملة مُضريّـــــــــة   فولّـــوا شرادا مثل جـــفْل النّعائـــم
فولّت سويــــد ثمّ خلّت مُجيــــرها   وشيخ حِمـــــاها في لجوج المَصادم
وكم خلّفوا مابين بـــكر وبكـــرة   وكـــــــم غادة ملتفّة في الهدائــــم

فهذه الأبيات إلى جانب كونها تعزّز الجانب البطولي الملحمي للشخصيات بما حملته من وصف جميل لوسائل الحرب وتتبع لأحداثها ، تعدّ أيضا مسرحا مُناسبا لاستعراض براعة الشاعر التّصويريّة والفنّية ، خاصّة إذا ما تعلق الأمر بالرّغبة في حيازة الرّيادة البطوليّة والشّعرية معا .

ومن مظاهر تفنّن هذا الشاعر وسعيه لإثبات براعته الشّعرية كثرة اعتماده على الابتكار في التّصوير ، وإن كان في أحايين كثيرة يلجأ إلى استدعاء ثقافته التراثية الأدبّية المتأثرة خصوصا بدواوين الشعر الجاهلي (كرّ الهزاعم . حملنا عليهم . حملة مضريّة . جفل النّعائم . غادة ملتفّة في الهدائم) .وما يستحق أن يذكر هنا أيضا ، هو ذلك التّناغم الجميل الذي ترتّب عن حسن توظيف بعض المقابلات الضدّية بشكل فعل وردّ فعل حتمي :

الفعل ←—— ردّ الفعل

طـــارد(نحن) ←—— فولّت سويد (هم)

حملنـــا (نحن) ←—— وكم خلّفوا (هم)

فكأن في تلك " الفاء" من " فولّت " ما يكفي من القوّة التّعبيريّة وحتمية الدّلالة على انكسار العدوّ وانسحابه مرغما .

3ـ وصف العدو بعد المعركة (الانهزام) :

وطاحَت على وادي ملال هشائـــــم   من القوم صَرعَى للنّسور القشاعم

فكانوا إلى الطّيْـــــر الغشيم فَرائسا وكانت على الأعداءشُؤم الدّمــائم

وهكذا كانت نتيجة هذه المعركة وبالاً، وجزاء قاسيا(صرعى للنسور . فرائس للطيور) على كل من يعترض سبيل هذا البطل إلى تحقيق مهمّته السامية . غير أنها على صعوبتها ليست آخر محطّة ، فهي في الواقع مجرّد حلقة من سلسلة حروب ونزالات سيخوضها هذا القائد محقّقا فيها النّصر ،الواحدة تلو الأخرى ، لتهبّ عليه أخيرا ريح البشرى بالانتصار الأكبر على جيش المرينيين :

و هبّتْ رياح النّصـــر من كلّ جانبٍ وجاءت إلينا مُبهجات الغنائم

ولمّا قضينا الأمرَ في الحـــرب مِنْهُمُ رحلنا بعون نَحْوَ المَـعالم

و بنفس الوهج الشعوري والشعري الذي حمل صدى هذه المعارك ، وعلى وزن بحر الطّويل الكثير التفاعيل والمناسب لمثل هذا المقام (3) واصل بطل " بني زيان " سرده الملحمي لمعارك أخرى ، وضروب من الأهوال والعقبات التي لم تُتنيه عن بلوغ غايته الكبرى :

كررْنا عليْهم كـرّة بعْدَ كـــــــرّة وقدسُعّرت للحرب نـــيران جَاحـــــم

بضَربٍ يزيل الهام عن مُستقــــرّه وطعنٍ مضى بيــن الكلـــى والحيـــازم

فهذا أسير صفّدته يدُ الوغــــــى وهذا قتيل في عجـــــــــاج المصادم

فطُوبى لعبد الـواد عند ازْدحامهم لقد جدّلـــــوا في الحــَـرب كلّ مُزاحم

يبدو أنّ هذه الأبيات مع ما حملته من معانٍ بطوليّة ، حملت أيضا مجموعة من السّمات الأسلوبية التي تمسّ المستوى الإيقاعي لهذا الخطاب وتثريه بسحر و تأثير إيحاءاتها ودلالاتها . وفي مقدّمتها التكرار والتّرديد ، باعتبارهما من السّمات الأسلوبية ذات الأثر الخاص في ترسيخ المعاني وزيادة سحرها النغمي والصوتي عند المتلقّي . ومن ذلك قوله " كررنا عليهم كرّة بعد كرّة " ففي توارد صوت الراء والكاف بالإضافة إلى ترديد كلمات بعينها ، مع مراعاة السياق التي وردت فيه، نوع من التأكيد على كثرة وقوع

الفعل " كرّ" وفي ذلك أيضا تأكيد واضح على كثرة الوقائع والمعارك ، وكذلك في قوله " فهذا أسير / وهذا قتيل " ما دلّ على تعدّد مصاب العدوّ ، وزاد من ثراء النصّ موسيقيا .

كما ازداد ثراء النص فنيا ببعض الصور والألوان البديعية :

أسير صفّدته يد الوغى :فجعل للحرب يدا قاهرة تأسر وتصفّد والأصل في الأسر للجنود

الجناس : كررنا ـ كرّة / ازدحامهم ـ مزاحم

الترادف: سعرت ـ نيران / **بضرب ـ طعن**

وأمثلة ذلك في بقيّة النّص كثيرة ومتنوّعة .

وأخيرا يصل هذا البطل إلى هدفه الأكبر، ويدخل تلمسان فاتحا ، ليسود بحكمه وحكمته ربوعِ مملكته الموعودة :

دخلتُ تلمسان التي كُنت أرْتجـــي   كمـــا ذكرت في الجفر أهل الملاحم
فخلّصـــتُ من غُصّابها دار مُلكنا   وطهّرتـُــــها من كلّ باغٍ وجـــارم

وبدخول هذا القائد منتصرا إلى مملكته (تلمسان) تعود سيادة ضمير "الأنا " في النص(دخلت . كنت . أرتجي . ذكرت . فخلّصت . وطهّرتها) للدلالة في الأخير على تفرّد البطل بالبطولة الفرديّة الأسطوريّة ، كما هو الأمر غالبا في الملاحم اليونانية والرّومانية القديمة(4) . ممّا يعني أيضا أنّ تلك العدّة والعتاد من جند، وجياد ،وأسلحة إنّما هي من فضل الله الذي سخّرها له لأجل تحقيق هدفه ، فقام شاكرا لله مصلّيا على نبيّه الكريم :

فقُمنا بأمر الله في نـــصر دينه وفي كفّ ماقـــد أحدثوا من مظالم

فلله منّا الحمـــد والشّكر دائما وصـــلى على المختار من آل هاشم

وهكذا " يربط أبو حمّو بين الدين والسياسة ، فهو مؤيّد من الله ، ومكلّف بنشر العدل والأمن في البلاد، فلا يخشى الأعداء ، ولا يهاب جيوشهم ، لأنّها لا تستطيع أن تتغلب على مشيئة الله "(5) وتلك ميزة يختصّ بها كلّ بطل مسلم ، ويعتزّ بتفرّده بها بين غيره من الأبطال.

ومن ثمّ، فإن هذه القصيدة بما حملته من خيال شعري وتصوير فنيّ ، وإيقاع نغميّ أضحت تمتّ إلى الشعر أكثر ممّا تَمُتّ إلى التاريخ ،فتعدّت بذلك كونها مجرد سرد لوقائع وأخبار إلى ذلك النوع من المنظومات التي تعتمد بشكل عام على سرد الحوادث وتفصيل الوقائع وتمثيل المشاهد ، ببداهة الفكر وروعة التصوير وإحكام الصّنعة ، فكأنّما جمعت بين الفنّين الشّعريين الموسيقي والقصصي(6) .

فصار شعر هذا القائد سجلا حافلا بالمواقف الحاسمة ، وروائع الأقوال المعبّرة عن طموح قيادي، وموهبة أدبية ، وصفات رجل متّزن حكيم زاهد على الرّغم من امتلاكه لكلّ أسباب المتعة والرّفاهية :

فما بسوى العلياء هِمنا جـــــلالةً إذا هام قومٌ بالحسان النّواعـــــم

بُروق السّيوف المشرفيات والقنـا أحبّ إلينا من بـــروق المباســـم

وأمّا صهيل السّابحات لدى الوغى فأشجـــــى لدينا من غناء الحمائم

فيرغب منّا السلم كلّ مُـــحــــارب ويرْهبُ منّـــا الحرب كلّ مُسالم (7)

وهكذا تغلغلت تلك النّزعة الفخرية والحماسية الممزوجة بحسن السبك والتّصوير إلى قلب قصائد أبي حمو ،وأضفت عليها جوّا خالدا من الرهبة والطّموح والبطولة ، حيث ظلّت في الأخير، نِعْم الأنيس لهذا القائد الذي خانه الدّهر بعد طول تحالف ، وتحالفت الأقدار ضدّه في آخر سنوات عمره ، وهو القائل في منفاه (أواخر سنة 773 هـ) :

ولكمْ ظفرنا بالرّضـــى من دَهرنا وأتـــــت لنا الدّنيا بوقت مُسعد
نجْـــني المُنى وبنو الزّمان عَبيدُنا والسّعد يُدني ما لنـــا منْ مقصد (8)

إلى أن يقول في ببيتين مؤثّريْن يتصاعد وجعهما في قلبه بتصاعد زفرات الحزن والأسى على ما لاقاه من خيانة من قبل حلفائه :

نقَضوا العُهود وخلّفوني في الوَغى بين الأعادي كالغريـب المُفرد
كفَروا بأنْعُمنا وخانوا عـهْدنــا وأتوا مـــن الخِذلان ما لم يُعْهد (9)

غير أنّ إيمانه ـ المعهود ـ بالله هو ما يُبقي شعلة الأمل مشتعلة في قلبه :

يا ربّ كم أنستني فـــــي غربتي يا ربّ كـــم فرّجت كرب المكمد
يا ربّ فاجْبر ما تـــرى من حالتي يا ربّ واجبـــر قلب كلّ موحّد
يا نفسُ لا تيئس وإن طال المــدى فالله يجمــــع شمـل كلّ مبعّـد
وستعـــــود أيام السّرور طيبهـــا وتعــود عن قرب ليالي الأسعد (10)

ولقد صوحبت هذه الرّؤيا الإيمانية العميقة، التي طالما أطبقت بروحانياتها الصافية على خواتم نماذجه الشّعرية، ببراعةٌ محسوسة في الوصف ، ووصف حسّي بارع، لعلّه كان خير مطيّة في يد الشاعرأثناء محاولاته العديدة لاستجلاء أحاسيسه ، وبسط عبير تجاربه، ونقل الصّورالعالقة بذهنه ، غير بعيد عن ملامح الفطرة البشريّة المتّسمة بالبساطة في عمومها والسحر في تفاصيلها . وذلك لممّا يُعزى إليه نجاح العمليّة التّصويرية في

النماذج المذكورة بدقّة أوصافها ووضوح تفاصيلها ، حتّى لكأنّ بعض المشاهد فيها تكاد تتراءى لك على مرمى من العين ، سيما إذا كنت من أصحاب الخيال السّبّاح والفكر الجوّال والخاطر الشّعريّ الميّال إلى الغوص فيما وراء الصّور .

هوامش وإحالات :

1. والقصيدة كلّها مأخوذة من بغية الرواد لأبي زكريا يحيى بن خلدون ، ج2 ، ص 30 وما بعدها .
2. أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، بطرس البستاني ، ص238/ 239
3. موسيقى الشعر العربي ، صابر عبد الدايم ، ص21
4. صورة البطل الملحمي في شعر السلطان أبو حموالزياني ، أحمد موساوي ، الفضاء المغاربي ، ع5 ، ص 103
5. أبو حمو موسى الزياني ، حياته وآثاره ، عبد الحميد حاجيات ، ص 213
6. مقدّمة الإلياذة ، سليمان البستاني ، ص61
7. المصدر نفسه ، ص 265
8.
9. بغية الرواد ، يحيى بن خلدون ، ج2 ، ص213
10. نفسه ، ص267
11. نفسه ، ص 268